

السياحة البحرية في التراث الأدبي الجغرافي

م.د عدنان الشجيري
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

المقدمة

أدى إنتشار الإسلام وإستقرار الأوضاع الإدارية والسياسية ، وإزدهار الحياة الإجتماعية والإقتصادية في العصور الوسطى إلى انتعاش ملحوظ في السياحة البحرية على اختلاف غاياتها،وقد إحتفظت دفاتر السواح بمذكرات ممتعة تضمنت معلومات مهمة عن الحياة الإجتماعية ، والسكانية ، والإقتصادية ، والسياسية ، والثقافية ، والدينية ، والظواهر البحرية التي لاحظوها أو سمعوا بها ، إلا أنها لم تحظ بالدراسة الجادة كالتى نالتها العلوم الأخرى .
والدراسة هذه مساهمة متواضعة نلقي الضوء من خلالها على أهم ما شاهدته وسمعه ولاحظه السواح في تلك الحقبة الزمنية .
ويمكن تقسيم هذه المذكرات حسب مصادرها إلى أربعة أقسام؛ قصص الأدب الشعبي ، كتب العجائب ، كتب الجغرافية ، وكتب الرحلات .

اولاً:قصص الأدب الشعبي

تعد قصص الأدب الشعبي البحري من أقدم الأدب الجغرافي الذي وصلنا من العصور الوسطى ، وتأتي قصص أسفار السنديباد السبع في مقدمة قصص هذا الأدب وأكثرها تعبيراً عن عالمه ، أو كما يقول الدكتور حسين فوزي بأنها القصة البحرية الأكبر في الأدب العربي الجغرافي ، وهي فوق هذا كله واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم⁽¹⁾ ، وهي ليست قصة خرافية وإنما قصة جغرافية جمعت بين المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى وابداع الخيال والخلق الفني ، وقد عرفت ككتاب مستقل ثم اضيفت إلى قصص الف ليلة وليلة ويعود زمنها إلى عصر هارون الرشيد (١٧٠هـ/٧٨٥م-١٩٣هـ/٨٠٩م)⁽¹⁾ .

بدأت رحلة السنديباد الأولى ،حينما أحس بأن ثروته على وشك الضياع ، فتذكر ما رواه أبوه عن سليمان الحكيم وقوله ثلاثة خير من ثلاثة، " الممات خير من الولادة،وكلب حي خير من أسد ميت،والقبر خير من الفقر"،فسارع إلى بيع ما تبقى عنده من عقارات بمبلغ ثلاثة آلاف دينار ثم انحدر إلى البصرة برفقة عدد من التجار،وركب في إحدى السفن المتوجهة إلى البحر الشرقي الكبير(المحيط الهندي)وطوله من بحر الفلزم(الأحمر) الى الواق واق (اليابان) حوالي أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ، ويبدو انه لم يركب البحر من قبل ،لذلك تغير لونه،واختلف مزاجه،ومن جزيرة إلى أخرى كان من هو ومن معه يبيعون ويشترون ويقايضون

حتى رسوا على جزيرة منبسطة، فانتشروا فوق بساطها يستريحون وإذا بالجزيرة تميد بهم، فأخذ الريان ينادي طالبا ان يعجلوا بالرجوع الى المركب او يهلكوا، فليست هذه جزيرة، وإنما هي حوت كبير يستريح فوق الماء، فلحق بالمركب من لحق وهلك من هلك، أما السندباد فقد تعلق بخشبة فظل على سطح البحر يوما وليلة، حتى رأى الموت الوانا، واخيرا قذفته الأمواج على ساحل احدى الجزر فأخذ يمشي تارة ويستريح تارة، يتقوت على أوراق الشجر وحشيش الأرض، وبينما هو على هذه الحال، لاحت له فرس مربوطة فاتجه إليها وهو بين الأمل واليأس حتى خرج له أحد الرعاة، فإقتاده إلى جماعة قدموا إليه الطعام والشراب ثم علم انهم ساسة خيول ملك الجزيرة، وانهم ياتون إلى هذه الأرض في موسم معلوم ومعهم خيولهم فيخرج حصان في البحر وينزل تلك الخيول، وبعد ذلك يحاول اقتيادها إلى البحر، غير ان الساسة يصرخون في وجهه فيتولى هاربا، ثم أخذ هؤلاء الساسة السندباد الى ملكهم ويسمى (بالمهراج)، فلما رآه وعلم بقصته أكرم مثواه ثم عينه مشرفا على الميناء وكاتباً على السفن، فاستغل السندباد هذه الوظيفة ليكون أقرب إتصالا بأصحاب السفن يسألهم عن بلادهم ان مكوثه الطويل في الميناء جعله أكثر إتصالا بالهنود فعرف انهم أجناس مختلفة منهم الشاكرية وهم أشرفهم، لا يظلمون أحدا ولا يهضمون حقوقا، وعرف منهم كذلك البراهمة، وهم لا يشربون الخمر وانهم من أهل صفاء، ولهو، ولعب، وطرب.

ورأى السندباد ذات يوم في تلك الجزيرة أسماكاً، طول كل سمكة مائة ذراع يخاف منها الملاحون فيقرعون الأخشاب حتى تهرب، وذات يوم أقبلت سفينة شك السندباد في أمرها وكأنه عرفها وأخذ بحارتها يخرجون متاعها، والسندباد يسجل كل متاع بإسم صاحبه، حتى أخرجوا أحمالا كتب عليها "هذه ودبعة السندباد البغدادي" ففرح بها، فأخبر السندباد ملك الجزيرة بالأمر فسر بذلك، ثم قدم له هدية واستأذنه في السفر فعاد إلى بغداد وهو يحمل بضاعة تساوي ثروة كبيرة.⁽³⁾

وبعد ان أخذ السندباد قسطا من الراحة في بغداد عاوده الحنين إلى السفر فقام برحلته الثانية فانهدر إلى البصرة، برفقة عدد من التجار، وركب إحدى السفن المتوجهة إلى البحر الشرقي الكبير وأخذ المركب يجد بهم في السير من جزيرة إلى أخرى، إلى ان وقف في جزيرة كثيرة الأشجار، يانعة الثمار، ليأخذ التجار قسطا من الراحة، وقد اندهش السندباد بما في تلك الجزيرة فاخذ يتجول فيها ويستمتع بخيراتها حتى تعب فأخذته الغفوة ولم يفيق من نومه إلا في اليوم التالي فوجد السفينة قد أقلعت فنزل به القهر والغم حتى كادت مرارته تتفقع وأخذ يفكر في وسيلة تنقذه من هذه المحنة، وبينما هو على هذه الحال لاح له طير ضخم يقال له (الرخ) وقد بسط فوق قبة بيضاء، ادرك بعدئذ انها بيضة فألهمه ذكاؤه ان يحل عامته ويفتلها كالحبل، وربط نفسه بمخالب الطير حتى اذا اصبح الصبح طار الطير حاملا السندباد وما ان حط الرخ على احدى الروابي انفصل عنه السندباد واخذ يتمشى حتى وجد نفسه بوادي مليء بالماس والحيات تحيط به من كل جانب، وهي من الكبر بحيث تستطيع ان تبتلع فيلا بأكمله.

بينما هو على هذه الحال ،إذا بشاة مذبوحة تسقط عليه من الأعلى ، فتذكر ما سمعه في صغره من أخبار البحرين وحكاية الماس ،وكيف يسافرون الى الجبال المحيطة بواديه ومعهم الأغنام يذبحونها ويسلخون جلدها، ويلقون بلحمها من أعلى الجبل ،فيعلق بلحمها بعض حصى الماس وتأتي النسور والعقبان فتنقض على الأغنام المذبوحة تاركة اللحم وقد علقت به حجارة الماس فاغتنم السندباد الفرصة فجمع من الماس ما استطاع جمعه ، ثم شد نفسه على إحدى الذبائح ووضعها على صدره ، فجاء احد النسور وحمل الذبيحة إلى أعلى الجبل والسندباد معلق بها ، ثم طار عنها لما سمع ضجيج التجار ،ولما تقدم صاحب الذبيحة وجدها نظيفة وبجانبيها رجل(السندباد) فقص على صاحب الشاة قصته ،ثم إنتقل السندباد بصحبة التجار إلى جزيرة الكافور فأخذوا منه الكثير، وتمت مبادلته بالأمتعة والتحف، وعاد إلى البصرة ومنها الى بغداد.^(٤)

وبعد قسط من الراحة في بغداد ،عاوده الحنين إلى السفر، فغادرها متوجها الى البصرة ومنها إستقل هو وزملاؤه التجار سفينة ،فأخذت تشق بهم عباب البحار، فعصفت بهم ريح عاتية ألقت بهم إلى جزيرة تسمى بأرض الزغب، فوصف سكانها بأنهم قوم كالقروء، لا قبل له بمحاربتهم لكثرة عددهم ،فأحاطوا الزغب بالمركب من كل جانب ،وقد جاءوا إليه سابحين فإذا هم من الأقرام لا يتعدى طول الواحد منهم أربعة اشبار، عرايا يغطي جسمهم زغب أحمر ويتكلمون بكلام غير مفهوم ،وقد أنزلوا الركاب جميعا وأخذوا المركب عنوة فمشى الركاب في أرض الجزيرة على غير هدى، غير انهم لمحووا عن بعد قصرا عالي البنيان فذهبوا اليه ودخلوا فيه ووجدوا فسحة كبرى في داخله وفي إحدى جوانبها آثار نار، وسفافيد، وعظاما كثيرة ،لذلك لم يكن المنظر مطمنا للركاب وبينما هم على هذه الحال السيئ إذا بالأرض تتزلزل تحت وقع خطوات عملاق أسود عيناه تلمعان كالحجر ، وأنيابه بارزة وله فم كفم البعير ،شفثيه السفلى مدلاة على صدره وأذناه كأذان الفيلة، منبسطة على أكتافه وأظفاره طويلة كأظلاف الوحوش، فترامى الناس بعضهم على بعض رعبا وبعد ذلك تقدم وجلس في مقدمة هذه الفسحة ،ثم مد يده إلى السندباد وبدأ يقلبه كالدجاجة بين يديه ثم قذفه جانبا، وبدأ يفتش بين الدكات ليرى أيهم أكثر لحما، فوقع إختياره على الربان، وكان سميئا عريض الأكتاف فأعجبه ثم أخذ سفودا من الحديد وأدخله في فمه وأخرجه من الجانب الآخر ،ثم وضعه على نار حامية الوقود، وجعل يقلبه يمنا ويسرة حتى نضج لحمه، وبعدئذ تناوله وأخذ يفتح لحمه ويأكله حتى تركه هيكلًا متناثرا، ثم نام وأخذ يشخر شخيرا مخيفا ولما أصبح الصباح خرج من القصر تاركا السندباد وأصحابه في حيرة من أمرهم وهم يتقدمون للموت واحدا بعد واحد ليكون فريسة هذا العملاق في اليوم التالي.^(٥)

ولما عاد العملاق إلى القصر أخذ أحد الركاب وفعل به كما فعل بالربان، لذلك قرر السندباد وأصحابه أن يلقوا بأنفسهم في البحر تخلصا من هذه الميتة الشنعاء إن لم يجدوا وسيلة لقتل العملاق، وإقترح عليهم السندباد أن يصنعوا أولا أكلاكا تحملهم في

البحر، ويزودونها بالطعام والماء، فإذا نجحوا في قتل العملاق أقاموا في الجزيرة وإلا إتخذوا من تلك الأكلاك وسيلة للهرب حتى يفيض الله لهم سفينة تنقذهم من هذه المحنة، ولما انتهوا من صنعها، جاءوا ببعض السفايفد على عينيه واتفأوا عليها بكل قواهم، حتى عميت عيناه، فقام وهو يصيح صياحا مزعجا ولكن دون جدوى، وبعد ذلك إستطاع الركاب أن يأخذوا أكلاكلهم وينجو بها في البحر، وساروا فيه على غير هدى حتى ألقاهم على إحدى الجزر، فأخذوا يبحثون عن الماء والطعام، ولكنهم فوجئوا بسمكة كبيرة قد أحاطت بهم، ففتناولت أحدهم وابتلعتة على دفعتين، وهكذا راحت تفعل مع بقية الركاب، ولم يبق إلا السندباد الذي إستطاع أن ينجوا بأعجوبة، وينهزم خوفا من الموت وظل سائرا حتى وصل إلى ساحل البحر، وإذا بسفينة قادمة تنقذه من الموت، ثم قص قصته على أصحاب السفينة، فأخبروه أن أمر هذه الجزر معروف لديهم، ثم سارت السفينة حتى وصلت إلى جزر (شلاهط) وبها من الكافور الكثير، فأخذ الركاب كفايتهم، وإستطاع السندباد أن يتعرف على ربان السفينة، فتحدث معه طويلا وعن أمتعة السفينة، وعند التحقق ظهر أن تلك الأمتعة تعود إليه فباعها وإشتري محلها القرنفل والسندل فعاد إلى البصرة ومنها إلى بغداد حيث الهدوء والدةعة⁽¹⁾

عاود الحنين السندباد إلى رحلة رابعة، فسارت بهم السفينة على غير هدى حتى رست في إحدى الجزر فخرج إليهم "قوم عراة صفر العيون سود الوجوه ملفوفو الشعر فاقتادوه إلى ملكهم، وقدموا له الطعام والشراب، غير أن السندباد شك في الطعام فتمنع من أكله حتى يتبين تأثيره، ثم سلم الملك ضيوفه إلى رجل فسار بهم في أنحاء الجزيرة يرعاهم كرعى السائمة، حتى يسمنوا ليقدموا طعاما إلى الملك، فتمكن السندباد من الإفلات بسلوكة طريقا أوصله إلى قوم من تجار الفلفل، فأخذوه معهم إلى ملكهم فقص عليه قصته فأخبره الملك بأن سكان تلك الجزيرة هم من أكلة لحوم البشر. وقد قربه الملك وزوجه من إحدى بنات الجزيرة، وقد علم بان إذا مات أحد الزوجين يدفن الآخر معه حبا، فأخذ السندباد يفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق في حال موت زوجته، وعندما ماتت دفن معها، ولكن السندباد تمكن من الفرار من قبره عبر كوة في الجبل نافذة إلى قبره، حاملا معه زاد الموتى وحليهم التي تدفن معهم طبقا لطقوس الموت عندهم وهي أشبه بطقوس المجوس، وبينما هو على هذه الحال، وإذا بسفينة تمر بالقرب منه، فأخذ يلوح لها بيده حتى إقتربت منه، فعرض على ربانها مكافأة مالية مغرية لقاء إنقاذه فرفض الربان ذلك العرض وأعلمه انه سينقذه طبقا للتقاليد البحرية العربية، وهي تقاليد المرودة والكرم العربي كما يوضحها رئيس المركب قائلا: "نحن لانأخذ من أحد شيئا، وإذا راينا غريقا على جانب البحر أوفي الجزيرة نحمله معنا، ونطعمه ونسقيه، وإذا كان عريانا نكسوه، ولما نصل إلى بر السلامة نعطيه شيئا من عندنا هدية، ونعمل معه المعروف والجميل لوجه الله تعالى ثم مرت السفينة بعدة جزر منها جزيرة (كله) فنتزود منها بالرصاص والخيزران، وأخذ يبيع ويشترى حتى جمع ثروة عظيمة وعاد إلى البصرة فبغداد بسلام كما يحدث في نهاية كل رحلة⁽²⁾.

وإستعدادا لرحلته الخامسة، إشتري السندباد سفينة كبيرة وضع فيها غلمانه وجواريه وبضاعته، وعين عليها رئيسا وبحارة لصيانتها، وانطلقوا في البحر، وكما يحدث في سائر رحلاته، تقع أولى مفاجآت الرحلة في إنتقام طائر الرخ من ركاب السفينة فيغرقها، جراء قيام طاقم السفينة بكسر إحدى بيضاته وأكلهم افراخه، وكالعادة ينجو السندباد وحده ويلجأ إلى جزيرة يلتقي فيها شيخ البحر، فيصفه كالجاموس في السواد والخسونة، ولكنه ذو هيئة آدمية وينجو من محاولات شيخ البحر لقتله، بأن يسكره ويقتله، وتتقدّم سفينة أخرى مرت به بجزيرة القروود حيث جمع القرفة والفلفل، فقايضها بالجوز الهندي وعاد سالما إلى البصرة ومنها إلى بغداد وبربح وفير.^(٨)

أما حكاية رحلته السادسة فهي قصة بحرية خالصة إستهلها السندباد بنفس المقدمة عن نسيانه مصاعب رحلته السابقة، وشوقه إلى السفر بالبحر والرؤية والفرجة والتعرف على الناس والبلاد والتجارة والمبادلة والمقايسة والربح، فقد ركب سفينة كبيرة تقل تجار عرب، أقلعت تمخر بهم عباب البحار، حتى صار رئيس المركب يصرخ لدخولهم في بحر فيه هلاكهم جميعا، فقال لهم: "اعلموا يا جماعة اننا تهنأ بمركبنا، وخرجنا في البحر الذي كنا فيه، ودخلنا بحرا لم نعرف طريقه، وإذا لم يفيض الله علينا شيئا يخلصنا من هذا البحر هلكنا بأجمعنا، فادعوا الله أن ينجينا من هذا الأمر، ثم ان الرئيس قام على حيله وصعد على الصاري، وأراد أن يحل القلوع، فقويت الريح على المركب فرده على مؤخرته فأنكسرت دفته قرب جبل عال فإضطر إلى النزول عن الصاري".

وروى السندباد تفاصيل غرق المركب بمن عليه بعد أن حطمته الانواء على حافة الجبل فغرق الركاب، ونجا السندباد مع قلة من التجار، فلجأوا إلى جزيرة فيها كنوز هائلة، من الجواهر والياقوت وفيها أيضا العنبر الخام الذي يعده السندباد ثروة من ثروات البحر، وقد وصفه بأنه يسيل مثل الشمع على جانب تلك العين من شدة حرارة الشمس، ويمتد على ساحل البحر فتطلع الهوايش (البقر) من البحر فتبتلعه وتنزل فيه في البحر، فيحمى في بطونها، فتتقدّمه من أفواهاها، فيتجمد على وجه الماء، فعند ذلك يتغير لونه وأحواله، فيأخذه السياح والتجار الذين يعرفونه فيبيعونه.

وجمع التجار من الثروات الملقاة على الشاطئ الشيء الكثير واستعدوا للعودة، غير انهم أخذوا يعانون من نقص في الزاد، فأعتراهم الضعف حتى هلكوا جميعا بإستثناء السندباد الذي إستأثر بكل ما جمعه من التجار، فعاد إلى بغداد ومعه الكثير من البضائع ما جعله في مصاف الأثرياء.^(٩)

ويصف السندباد رحلته السابعة وهي الأخيرة في سلسلة رحلاته بانها "أعجب وأغرب هذه السفرات" ويعبر عن شوقه إلى البحر قائلا: "فإشتاقت نفسي إلى الفرجة في البلاد، وإلى ركوب البحر، وعشرة التجار وسماع الأخبار فهمت في ذلك الأمر فقد حزمت أحمالا بحرية من الأمتعة الفاخرة وحملتها من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، فرأيت مركبا محضرا للسفر وفيه جماعة من التجار العظام، فنزلت معهم واستأنست بهم" وقد حدد السندباد مدة رحلته السابقة بسبعة وعشرين سنة، وأعلن في نهايتها

توبة خالصة عن السفر بالبحر وعد هذه السفرة بـ (غاية السفرات وقاطعة الشهوات) وذلك انه جسد خلالها أهوال البحر، ووصف أضخم حيواناته في الحيتان، وفي هذه الرحلة يقول السندباد، بأنه لأول مرة يصل إلى الصين، في رحلة، طابت لنا الريح وتحقق فيها الكثير من البيع والربح غير ان ريحا عاتية هبت على السفينة وأمطرتها بسيول من الأمطار ويصف السندباد ذلك وصفا دقيقا قائلا: "وإذا بريح عاصف هبت من مقدمة المركب، ونزل علينا مطر شديد حتى ابتلنا وابتلت حمولتنا، فغطينا الحمولة باللباد والخيش خوفا على البضاعة من التلف بالمطر، وصرنا ندعوا الله تعالى ونتضرع إليه في كشف ما نزل بنا مما نحن فيه، فعند ذلك قام رئيس المركب وشد حزامه وتشمر وطلع الصاري، ثم إلتفت يمينا وشمالا، وبعد ذلك نظر إلى أهل المركب ولطم وجهه، وبتف لحيته، فقلنا ياريس ما الخبر؟ قال اطلبوا من الله تعالى النجاة مما وقعنا فيه وابكوا على انفسكم وودعوا بعضكم، واعلموا ان الريح قد غلبت علينا ورمتنا في آخر الدنيا.

وانبأهم رئيس المركب بوجود حيتان ضخمة يمكن أن تبتلع المركب بما فيه، ويصور السندباد ظهور ثلاثة من الحيتان الضخمة وما أحدثته من صوت راعد قاصف عند ظهورها على سطح الماء، وكيف مألهم الرعب والفرع من حلقة الحوت الهائلة، وكيف تحركت الحيتان وحطمت السفينة، وصور كفاحه للأمواج وإعلان التوبة من السفر بالبحر في قطعة من أجمل أدب البحر وأغناها بالصور قائلا: "ثم ان الحيتان الثلاث صارت تدور المركب حول المركب، وقد أهوى الحوت الثالث ليبتلع المركب بمن فيها، فإذا بريح عظيمة ثارت، فقام المركب ونزل على شعب فتكسر وتمزقت جميع الألواح وغرقت جميع حمولة التجار والركاب في البحر، فخلعت جميع ما علي من الثياب، ولم يبق غير ثوب واحد، ثم عمت قليلا فلحقت لوحا من ألواح المركب وتعلقت به، ثم اني طلعت عليه وركبته، وقد صارت الأمواج والرياح تلعب بي على وجه الماء، وأنا قابض على ذلك اللوح والموج يرفعني ويحطني، وأنا في أشد ما يكون من المشقة والخوف والجوع والعطش، ثم صرت ألوم نفسي على ما فعلته، وقد تعبت نفسي بعد الراحة، وقلت لروحي ..يا سندباد يابحري أنت لم تتب عن السفر وإن تبنت تكذب في التوبة، فقاسي كل ما تلقاه فانك تستحق جميع ما يحصل لك" (١٠)

وقدر للسندباد النجاة والتوبة من عن أسفاره البحرية وتنتهي قصة رحلات السندباد ونهاية سعيدة بأن يتزوج بنت شيخ التجار وتجمع أموالها بأمواله، ويستقر أخيرا في بغداد وهو بأحسن حال والحقيقة ان قصص أسفار السندباد السبع تحكي نزوعه إلى حياة أفضل بعد أن ضاقت به السبل على البر، كما انها دعوة إلى العمل والكد لمن يريد رغد الحياة، وان البحر مجال واسع لتحقيق هذه الغاية، ورغم أهواله فإن السياحة فيه متعة قل نظيرها.

ثانياً: كتب العجائب

تعد كتب العجائب أحد أهم مصادر دراسة السياحة البحرية في العصور الوسطى وقد أخصيت في القرن السابع عشر من قبل حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) بأربعة وعشرين كتاباً، ولم يصلنا منها إلا القليل، وهي في أحسن أنواعها لاتعدو ان تكون كتباً وصفية للبلدان وأهلها ومساكنها وحيواناتها ونباتها وتربتها، فهي كتب تعالج موضوعات الجغرافية والتاريخ الطبيعي، مما لا يخرجها عن مجموعة الكتب الوصفية التي ألفها ابن خردادبه وقدامة وابن حوقل والاصطخري، ومن هذه الكتب كتاب (عجائب الهند) لبرزك بن شهريار الرامهرمزي، ويرجح المؤرخون تاريخ تأليفه إلى المدة الواقعة ما بين القرن العاشر والرابع عشر الميلادي، وقد جمع فيه مؤلفات حكايات البحريين والأسفار البحرية إلى الهند والزايج والصين، وعلى الرغم من أسلوبه الركيك، فقد جمع بين سهولة الأسلوب وقوة الإيماء بالجو البحري⁽¹⁾، ومما جاء فيه :

حدثني أبو زهر البرختي الناخذة، وكان من عظماء سيراف وكان مجوسياً على دين الهند وكان عندهم أمينا يقبلون قوله ويستودعون أموالهم وأولادهم، فأسلم وحسن إسلامه . سافر الرجل في مركب عظيم ومعه فيه خلق كثير من أخلاط التجار وهم يسرون في بحر (ملانو) من أطراف أرض صين، وأبصروا بعض جبالها فلم يشعروا، وإذا بريح قد خرجت عليهم من الجهة التي يقصدونها، فلم يسعهم إلا الإنصراف معها حيث توجهت، فلما طال عليهم الليل وهم في قبضة الهلكة، وقد حكمت عليهم الرياح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ومركبهم يئن وينط ويتقعقع ويتعتع، تواعدوا وصلى كل منهم على جهة على قدر معبوده لانهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر، وإستسلموا للموت، وجرروا كذلك يومين وليلتين لايفرقون فيها بين الليل والنهار فلما كانت الليلة الثالثة وإنتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة أضاءت الأفق فخافوا خوفاً شديداً وفرعوا إلى رئيسهم وقالوا له : ياربان ألا ترى هذه النار الهائلة التي ملأت الأفق ونحن نجري إلى سمتها وقد أحاطت بالأفق والغرق أحب إلينا من الحريق، فبحق معبود الا قلبت بنا المركب في اللجة والظلمة حتى لا يرى أحدنا الآخر ولا يدري ماكانت منيته ولا يتجرع لوعة صاحبه وأنت في حل وبل مما يجري علينا، فقدمتنا في هذه الأيام والليالي ألف مائة، فميتة واحدة أروح.

فقال لهم اعلموا أن مايجري على المسافرين والتجار من أهوال هذا أسهلها وأرحمها ونحن معشر ربابنة السفن لانطلع إلا وأرواحنا وأعمارنا معنا، نعيش بسلامتها ونموت بعبطها، فاصبروا وإستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفها كيف يشاء.

فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل، وندب كل منهم شجوه، وقال لهم مسافر من أهل قادس (الأندلس) : لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ مع أبي، وكان قد أذهب عمره في ركوبه، وها اليوم وقد رميت ثمانين سنة ورائي، فما سمعت بمن

سلك هذا المكان ولاخبر عنه. فلا بأس عليكم، ولا تخافوا لقد نجوتم بقدرة الله، هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال تنكسر عليها أمواج البحار المحيطة بالأرض، فتنظر في الليل نار هائلة مرجفة يخاف منها الجاهل، فإذا طلعت الشمس تلاشى ذلك المرأى وعاد الماء فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ، وتناولوا طعامهم وشرابهم، وذهب عنهم الهم والغم، ولما وردوا الجزيرة طرحوا أنفسهم على رمالها، وتمرغوا على أرضها شوقاً إليها.^(١٢)

وقال أيضاً: حدثني أبو محمد الحسن بن عمر ان بعض البحرين خرج في مركب من عدن إلى جدة، فجاءت سمكة ونطحت السفينة بحذاء زيلع(بجوار ساحل صومال) نطحة منكرة لم يشك أهل المركب أنها كسرتة، وإنحدر الرابانة الى قاع السفينة فلم يجدوا للماء أثراً، فلما وصلوا إلى جدة نزلوا المركب إلى البر، فوجدوا رأس السمكة في قاعة وقد سجي وسد الموضع حتى ليس فيه خلل، وإذا هي نطحت المركب لم يمكنها الخلاص فانقطعت في حلقها، وبقي رأسها في موضعه.^(١٣)

وحكى ابو محمد الحسن بن عمر عن بعض النواحذة أنهم لجأوا إلى خور رأوا في شاطئه حية هائلة المنظر تعبر الخور إلى الشاطئ الآخر بسرعة ثم تعود بعد العصر؛ وتقصوا خبر مسيرها فوجدوا في الناحية الأخرى في الخور أجمة ومستنقع ماء وأكواما من أنياب الفيلة؛ وإذا بتلك الحية كانت تأكل الفيلة وتبقي أنيابها.^(١٤)

وقال أيضاً؛ حدثني محمد بن باشاد ان بجزيرة النيان، وهي جزيرة في البحر الخارج، بينها وبين فنصور مائة فرسخ، ان قوما يأكلون الناس ويجمعون رؤوسهم عندهم، ويفتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرؤوس، ويشترون سبائك صفر بالثمن الوافر ويدخرونه مكان الذهب، ويبقى في بلادهم الدهر الطويل كما يبقى الذهب عندنا، والذهب عندهم لامقام له، بل يكون فيه ما يكون في الصفر عندنا.^(١٥)

وهكذا تأتي بقية الكتاب عبارة في أقاصيص يتسقطها صاحب الكتاب من ألسن المسافرين والرابانة، ولم يدع لنفسه السفر إلى المناطق التي تحدث عنها.^(١٦)

ومن كتب العجائب الاخرى كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) لمؤلفه زكريا محمد بن محمود القزويني(١٣٠٣/٥٦٠٢م - ١٣٨٣/٥٦٨٢م)^(١٧)، وهو موسوعة علمية تناول فيه جوانب عديدة من العلوم الكونية والجغرافية أو ما نسميه اليوم بعلم نشوء الكون، وقد شغلت البحار وأخبارها حيزاً من كتابه؛ ومما جاء فيه: في بحر الهند جزيرة تسمى برطایل قريبة من جزيرة الزايج(جاوه) بها قوم وجوههم كالمجان المطرقة وشعورهم كأذنان البراذين، وفيها الكركدن، وبها جبال يسمع منها في الليل صوت الطبل والدف والصياح المزعج والصيحة المنكرة، والبحريون يقولون ان الدجال فيها ويخرج منها، وذكر بعض التجار انه سعد هذه الجزيرة فرأى فيها مردا صفر الوجهه كوجوه الأتراك واذانهم مخروطية، ولهم شعور على زي النساء، فغابوا عن بصرهم ثم ان التجار بعد ذلك أقاموا يترددون على الساحل فلم يخرجوا إليهم من القرنفل فعلموا ان ذلك بسبب نظرهم إليهم، ثم عادوا بعد سنين إلى ما كانوا عليه، وخاصة هذا القرنفل انه إذا أكله

الإنسان رطبا لا يهرم ولا يشيب شعره، ولباس هذه الامة ورق شجر يقال لها اللوف
يأكلون من ثمرها ويلتحفون بورقها، ويأكلون أيضا السمك والموز والنارجيل
ويصطادون من البحر حيوانا على شكل السرطان، وهذا الحيوان إذا خرج إلى
البر، صار حجرا اصلا وهو مشهور يدخل في الأدوية التي تتعلق بالكحل^(١٨) وجاء
أيضا؛ أما العنقاء فهي أعظم الطيور هيئة وأكبرها خلقة، تخطف الفيل كما تخطف
الحدأة الفأر، وكان في قديم الزمان، يخطف من بيوت الناس، فتأذوا من جنائته، إلى أن
سلب عروسا جاوية، فدعا عليه حنظلة النبي. فذهب الله به إلى بعض جزائر المحيط
تحت خط الإستواء وهذه جزيرة لا يصل إليها الناس، وفيها حيوانات كثيرة كالفيل
والكركد والجاموس والنمر والسباع وجوارح الطير، والعنقاء لا تصيد إلا فيلا أو
سمكا عظيما أو تنينا وعند طيرانه يسمع في ريشه صوت كهزيم السبل أو صوت
الأشجار عندما هبوب الريح.

وحكى بعض التجار وقال: ضللنا الطريق في البحر المحيط، فإذا نحن بسواد
عظيم كغيم مظلم، فذكر الملاحون انه العنقاء، فتتبعناه حتى دخلنا نحن ذلك السواد، ثم
فتحنا الألسن بالدعاء له فلا يزال يمشي بنا حتى وجدنا الطريق وغاب عنا.
وذكر ان عمر العنقاء ألف وسبعمائة سنة، وتتزوج إذا أتى عليها خمسمائة
سنة، وإذا حان وقت بيضها ظهر بها ألم شديد، فيأتي الذكر بماء البحر بمنقاره فيحقتها
بمنقاره فتخرج عنها البيضة فيحتضن الذكر البيض، والأنثى تمشي وتصيد، ويفرخ
البيض بمائة وخمسة وعشرين سنة، فإذا كبر الفرخ فإن كان أنثى فالعنقاء الأنثى تجمع
حطبا كثيرا، والذكر يوقد النار بمنقاره ويضرم ذلك الحطب، والأنثى تدخل تلك النار
وتحترق، والفرخ يبقى زوج الذكر، وإن كان الفرخ ذكرا فالعنقاء الذكر يفعل مثل ذلك
ويبقى الفرخ زوج الأنثى.^(١٩)

هذا بعض ما جاء في كتب العجائب التي يفترض أن تتعامل مع حقائق لا
معلومات ولا إشارات وأخبارا ترقى بمستوى الخرافات. وقد نعذر برزرك بن
شهريار عن معلوماته لأنه لا يدعي السفر، وإنما تسقط معلوماته عن ألسن الربابنة
والبحارة و التجار، أما القزويني فمن غير الممكن أن نعذره في الوقت الذي يتحدث
هو عن أهمية التحقق من الخبر، فقد أورد في كتابه الجغرافي (آثار البلاد) قصة عن
ملك الفرس كسرى أنو شروان بأنه سمع في مجلس له بأن في أرض الهند جبلا فيه
شجرة ثمرتها تحيي الموتى، فبعث رجلا إلى بلاد الهند ليأتيه بصحة هذا الكلام
، فذهب الرجل إلى هناك يسأل عن الجبل حتى اجتمع ببعض البراهمة فقالوا له، هذا
كلام مرموز من كلام الحكماء، وأرادوا بالجبل الرجل العالم، والشجرة هي
علمه، والثمرة هي فائدة هذا العلم، والحياة صورة الآخرة؛ فقال كسرى صدق علماء
الهند، الأمر كما ذكروا.^(٢٠)

ثالثاً: كتب الجغرافية

وتسمى أيضا كتب البلدان، واغلبها كتب وصفية، تناولت الإنسان والحيوان والنبات والأرض ومسالكتها وتختلف في مرتبتها العلمية، فعلى سبيل المثال لا الحصر يعد كتاب (البلدان) لليعقوبي، و(صورة الأرض) لابن حوقل، و(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، و(مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي، و(نزهة المشتاق في إختراق الأفاق) للإدريسي، في مقدمة هذه الكتب لأنها لا تستند على الوصف السمعي أو النقل وحسب، بل المشاهدة أيضا، بينما عد كتابي (رحلة ابن بطوطة)، و(رحلة ابن خرداذبه)، من الصنف الثاني لأنها إعتمدت في بعض معلوماتها على النقل والسماع دون المشاهدة فإختلطت عندهم الحقيقة بالإسطورة، ومهما تكن مرتبة الإثنتين فهما يزخران بمعلومات طيبة عن السياحة البحرية، لا يمكن لأي باحث أن يتجاوزهما.

يقع كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي (٢١) في مقدمة كتب الصنف الأول، وجاء إختيارنا له لكون المسعودي ساح في البحار، وقد دون لنا معلومات مهمة عن المناطق التي زارها، ومما جاء فيه: وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والفلزم واليمن وأصابتنني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة؛ فلم أشاهد أهول من بحر الزنج الذي قدمنا ذكره، وفيه السمك المعروف (بالاوال) طول السمكة نحو من أربعمئة ذراع إلى الخمسمئة ذراع بالذراع القمرية وهي ذراع أهل ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع، وربما يهدأ البحر فيظهر طرفا من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع_ وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم؛ والمراكب تقزع منه في الليل والنهار فتضرب له بالخشب والدبابد لينفر من ذلك، ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فمه وقد فغر فاه وذلك السمك يهوي إلى جوفه جريا؛ فإذا بغت هذه السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى (اللشك) فتلصق بأصل اذنها فلا يكون لها منه خلاص، فتطلب قعور البحار وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفوا فوق الماء فتكون كالجبل العظيم وربما تلتزق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا يدنو الاوال مع عظمتها من المراكب ويهرب اذا رأى الصغيرة، إذ كانت أفة عليه وقاتلة له. (٢٢)

وذكر أيضا: رأيت في بلاد سرنديب (سيلان) وهي جزيرة صغيرة في جزائر البحر، إذا مات ملكهم صير على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة، معدة لهذا المعنى وشعرة ينبجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب عن رأسه وتنادي؛ أيها الناس هذا ملككم وغاز فيكم حكمه وأمره، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت والحي القيوم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده، وكلاما هذا معناه في الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل إلى أربع قطع وقد هيء له الصندل والكافور وسائر أنواع

الطيب، فيحرق في النار ويذرى رماده في الرياح، كذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرض يذكرونه ونهج يممونه في المستقبل. (٢٣)

وذكر أيضا؛ ان أجود أنواع العنبر يقع إلى ناحية جزائر الزايج وساحله (الجزر الأندونيسية جاوه وسومطرة) وهو المدور الأزرق البارز كبيض النعام أو دون ذلك، ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالاولال المتقدم ذكره، وذلك ان البحر إذا اشتد قذف من قعرة العنبر كقطع الجبال واصغر على وصفنا، فإذا ابتلع الحوت العنبر قتله، فتطفو فوق الماء، وله أناس يرصدونه في القوارب من الزايج وغيرهم فيطرحون فيه الكلابيب والحبال ويشقون بطنه، فيستخرجون العنبر منه مما يخرج من بطنه يكون سهكا يعرضه العطارون بالعراق وفارس والسند، وما لقي ظهر الحوت منه كان نقيا جدا، على حسب لبثه في بطن الحوت. (٢٤)

وقال أيضا؛ ذكر لي جماعة النواخذة انهم راوا في البحر سحابا أبيض قطعاً صغار يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر، فإذا إتصل به غلا البحر، وإرتفعت منه زوايع عظيمة لاتمر زوبعة بشيء إلا وأتلفته، ويمطرون عقب ذلك مطرا سهكا فيه أنواع من قذى البحر. (٢٥)

وذكر أيضا؛ وهذه الجزائر (جزر المالديف) تعرف جميعا بالديبجات، ومنها يحمل النارجيل، وآخر هذه الجزائر سرنديب، يلي سرنديب جزائر أخرى نحو من ألف فرسخ تعرف بالراميني، وهي معمورة، وفيها ملوك وفيها معدن الذهب، ويلبها فنضور ومنها يحمل الكافور الفنصوري، والسنة التي تكثر فيها الصواعق والبروق.. يكثر فيها الكافور، وإذا قلت قل معه الكافور. ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب، وفيها من يأكل لحوم الناس، وتتصل هذه الجزائر بجزائر لنجبالوس، وفيها أم عجبية الصور عراة يخرجون في قوارب عند إجتياز المركب بهم ومعهم العنبر والنارجيل فيقايضونه بالحديد والثياب، ولا يبيعون بالدرهم والدنانير، ويلبهم جزائر يقال لها أندمان، وفيها أناس سود عجيبو الصور والمناظر مفلقو الشعور، وقدم الواحد منهم أكبر من الذراع، لامراكب لهم؛ فإذا وقع الفريق اليهم فمن قد إنكسر في البحر مركبه أكلوه، كذلك يفعلون بالمرالكب إذا وقفت إليهم. (٢٦)

وينفرد المسعودي بترقيم البحار، فأطلق تسمية البحر الأول على الخليج العربي أو كما كانوا يسمونه (ببحر فارس) والبحر الثاني وهو بحر (لاروي) (ويمتد من بحر العرب حتى سرنديب سيلان) والبحر الثالث هو بحر (هركند) (ويقع الى الشرق في شبه جزيرة القارة الهندية)، والبحر الرابع هو بحر (كلاة بار أو كلة بار) وهو ما يعرف اليوم بمضيق مالقة، ويصفه المسعودي بأنه بحر قليل الماء، وإذا قل ماءه كثرت آفاته وخبثه، وهو كثير الجزائر والصراصر، ومفردها صر وهي الممرات التي تجتازها السفن أثناء عبورها المضيق، والبحر الخامس هو بحر (كندرنج) ويقع بين ماليزيا وسيام، وهو كثير الجبال والجزائر وفيه الكافور وماء الكافور، وهو بحر قليل الماء كثير المطر، وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال لهم الفنجن، شعورهم مفلقة وصورهم عجبية يعرضون في قوارب لهم لطلب المراكب، وإذا إجتازتهم

يرمونها بسهام مسمومة، وبين هذه الأمم وكله بار جبال الرصاص الأبيض وجبال الفضة، ويليه البحر السادس وهو بحر (صنف) (ويقع إلى الجنوب من الهند الصينية حتى الجزر الأندونيسية) ، وفيه مملكة المهرج ، ملك الجزائر، وملكه لا يضبطه كثرة ولا تحصى حدوده ولا يستطيع أحد من الناس أن يطوف في اسرع ما يكون في المراكب بجزائره في سنتين، وجزائره تتصل ببحر لاتدرك غايته ولا يعرف منتهاه وهو مما يلي بحر الصين ، وفي أطراف جزائره جبال كثيرة ، والناس فيها بيض الوجوه مخرمو الآذان ووجوههم كقطع التراس (ربما الترس) المطرقة يجزون شعورهم كما يجز الشعر من الزق مدرجا، ويظهر في جبالهم نار بالليل والنهار بنهارها نار حمراء وبالليل تسود وتلحق بعنان السماء لعلوها، وذهابها في الجو ، تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعود والصواعق ، وربما يظهر منه صوت عجيب مفزع ينذر بموت بعض رؤوسائهم . ويليه جزيرة يسمع منها على الدوام أصوات الطبول والسرنايات والعيان وسائر أنواع الملاهي المطربة المستلذة ، ويسمع إيقاع الرقص والتصفيق .. والبحريون ممن إجتاز تلك الديار يزعمون ان الدجال بتلك الجزيرة .. والبحر السابع هو بحر الصين ويعرف ببحر (صنخي) وهو بحر خبيث كثير الموج والخب ، ووالخب هي الشدة والعظمة في البحر، وفيه جبال كثيرة لا بد للمراكب أن تجتازها لتصل إلى الصين- وإذا إشتد خبه ظهر منه أشخاص طول الواحد منهم خمسة أشبار أو الأربعة، كأنهم أولاد الأحابيش الصغار شكلا، فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود في غير ضرر ، فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة فان ظهورهم علامة للخب، فيستعدون لذلك بين مبتلى ومعافى. وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر، فإذا بان عن الماء أسرع حركته حتى إذا صار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية وتدخل تلك الحجارة في أكحال العين وأدويتها. (٢٧)

وعلى الرغم من ان المسعوي قد إختط لنفسه منها علميا لا يعتمد على النقل والسماع ، ويستند على المشاهدة ، كما جاء في قوله تعقيبا على طائر العنقاء والنسناس "وليس في خلقها ما يصعب على قدرة الخالق عز وجل ، ولكننا نأبى ان نصدقها ما دامت لم تتكشف لأعيننا، ولم نسمع بها ممن يعتد بكلامه" (٢٨) ، فقد تسربت إلى كتاباته الحكايات المنقولة والمسموعة وأحيانا الخرافات مما شوش على الحقيقة العلمية التي هي غاية كتاباته ، ففي حديثه عن بحر فارس يقول .. وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك... بينها وبين البحر فراسخ وفيها مغاص للؤلؤ العتيق منه والحديث المسمى بالمحار المعروف بالبلبل ، واللحم الذي في الصدف والشحم ، وهو حيوان يفزع من الغاصة على ما فيه من اللؤلؤ والدرر كخوف المرأة على وليدها ، وان الغاصة لا يكادون يتناولون شيئا من اللحمان إلا السمك والتمر وغيره من الأقوات، وما يلحقهم من شق اصول اذانهم لخروج النفس من هناك بدلا من المنخرين، لان المنخرين يجعلون عليها شيئا من الذبل مأخوذ من ظهور السلاحف البحرية. (٢٩)

ومع ان الواقع يؤيد المسعودي في أغلب ما ذكر فاننا نرى أثرا للخرافات في حكاية شق الغاصة اذ انهم لخروج النفس من هناك بدلا من المنخرين، إذ يبدو ان هذا نتيجة فهم مخطئ لما يلتجئ إليه الغواصون من سد فتحة المنخرين بمشقاص من الذبل، فالغواص لا يشهق داخل الماء، ولا يملك إلا كتم أنفاسه، ثم هو يبدأ في الزفير عندما لا يستطيع لنفسه إحتباسا، وفي تلك اللحظة يعطي الإشارة لمن يمسكون الحبل الذي دلي به من سطح الزورق ليجذبه بسرعة إلى سطح الماء.

وجاء في رحلة التاجر سليمان بأنه سمع ان في البحر حيوانا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجرا، ويتخذ منه كحلا لبعض علل العين^(٣٠)، وقد ذكرت هذه الحكاية في كافة كتب الجغرافية العربية والعجائب والرحلات ومن ضمنها كتاب المسعودي وقد أشرنا إليها آنفا.

وتأتي رحلة ابن بطوطة^(٣١)، ("تحفة النظار في غرائب الأمصار) في مقدمة كتب الصنف الثاني فقصه رحلته مليئة بالحكايات المسموعة والمنقولة والإسطورية حتى طغت على الحقيقة فشوحتها، ولكن هذا لا ينتقص من رحلة ابن بطوطة، كمصدر من مصادر الجغرافية العربية، وهي جديرة بالقراءة والإستنتاج، لأنها تضم معلومات لمناطق لم يسبق لأحد غيره ان وصل إليها وكتب عنها.

والذي يهمننا من هذه الرحلة هو الجانب البحري، ولأنه قد زار العديد من جزر المحيط الهندي وإستقر زمنا في بعضها كجزيرة ذبية المهل (جزر المالديف) ومر بجزيرة سيلان، وجاوه وربما وصل إلى الملايو، ولكن الملاحظ ان الفوضى تسيطر على تلك الجولات ولا يمكن للباحث أو القارئ أن يتبع خط سيره أثناءها.

جاء في رحلته: عزمت على السفر إلى ذبية المهل (جزر المالديف) وكنت قد سمعت بأخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر من قالقوط وصلنا إلى جزائر ذبية المهل، وهي إحدى عجائب الدنيا وهي نحو ألفي جزيرة، ويكون منها مائة فما دون مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه، وإذا وصل المركب إلى إحداها قل لا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤس النخل التي بأحداها عند الخروج من الأخرى، فإن أخطأ المركب في سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الرياح إلى المعبر ساحل الهند الغربي أو سيلان^(٣٢).

وأضاف يقول.. وأهل هذه الجزائر كلهم مسلمون، ذو ديانة وإصلاح، وهي منقسمة إلى أقاليم وعلى كل إقليم والي يسمونه الكرديوي، ومن أقاليمها بالبور وكننوس، والمهل وبه تعرف الجزائر، وبلاديب، وكرايدو، والتيم، وتلدمتي، وهلمتي، وميريدو، وكندل، والسويد، وهذه الأقاليم لازرع فيها وإنما يقتات أهلها على سمك تشبه البترون، ويسمونه قلب الماس، وهو أحمر اللون خالي من الزفر، وله رائحة كرائحة لحم الأنعام، يأكلونه بعد طبخه، وما زاد منه يجفونه فيأكلونه يابساً^(٣٣).

وفي رحلته إلى سرنديب (سيلان) حدثنا عن الأحجار الكريمة وكيفية استخراجها فيقول: "... والياقوت العجيب البهرمان (الياقوت الأحمر) يكون بهذه البلدة (الكنار) فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ، ومنه ما يحفر عنه، وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشتري الإنسان القطعة منها ، ويحفر عن الياقوت فيجد أحجارا بيضا مشعبة وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها فيعطيها إلى الحكاكين فيحكمونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه الأحمر (البهرمان) ومنه الأصفر ويسمى (الطوباز) ومنه الأزرق ويسمى (السفير) ومن عاداتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فتم فهو للسلطان يعطى ثمنه ويأخذ وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه ، و صرف مائة فتم يساوي ست دنانير ذهب." (٣٤)

وشملت زيارته إلى سرنديب زيارة جبل الرهون الذي يعتقد وجود قدم آدم في أعلاه فيقول: " وفي سرنديب جبل من أعلى جبال الدنيا (يبلغ ارتفاعه ٢,٢٤٣ م وهو ليس أعلى الجبال حتى في سيلان) وعليه وقعت رجل آدم عندما هبط من الجنة ، رأيناه من البحر وبيننا وبينه رؤية مسيرة تسع فراسخ ، ولما صعدنا كنا نرى السحاب أسفل منا وقد حال بيننا وبين رؤية أسفله، وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكلف، ويزعمون ان في ذلك الورد كتاب يقرأ منهم إسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي الجبل طريقان إلى القدم ، أحدهما يعرف بطريقة بابا، والآخر بطريق ماما ، ويعنون بذلك آدم وحواء عليهما السلام، فأما طريق ماما فهو طريق سهل وعليه يرجع الزوار ، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى ، وفي أسفل الجبل حيث الدروازنة (باب الجبل) مغارة تنسب إلى الإسكندر وفيها عين ماء .

وقد نحت الأولون في الجبل شبه درج يصعد عليها وعرزوا فيه الأوتاد الحديدية وعلقوا بها السلاسل لئتمسك بها من يصعده (وما تزال الأوتاد الحديدية إلى اليوم وفي أعلى الجبل مغارة تنسب إلى سيدنا الخضر ، وهو موقع فسيح وفيه عين ماء، وهو ملئ بالحيتان ، وبين المغارة وقمة الجبل حوالي ميلين وفي الصخرة حيث توجد القدم توجد تسع حفر منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب والياقوت والجواهر، فترى الزوار إذا وصلوا إلى مغارة الخضر يتسابقون إليها لأخذ ما في الحفر ، ونحن لم نجد فيها إلا يسيرا حجيرات وذهب أعطيناه للدليل. (٣٥)

ومن سرنديب إلى بنجاله (بنغلادش) التي وصفها بأنها بلاد متسخة كثيرة الأرز ، ولم أر في الدنيا أرخص سعرا منها، لكنها مظلمة ، وأهل خراسان يسمونها (دوز حست بور نعمت) ومعناها جهنم ملأى بالنعم ، والأرز يباع في أسواقها كل خمسة وعشرين رطلا دهليه بدينار فضي ، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ، والرطل الذهلي يعادل عشرين رطلا مغربيا ويساوي ثمانية كيلو غرام . ورأيت البقرة (الجاموسة) تباع بثلاثة دنانير فضة ، ورأيت كل ثمانية دجاجات سمان تباع بدرهم فضة ، وكل خمسة عشر فرخ حمام يباع بدرهم ، والكبش السمين يباع

بدرهمين ، ورطل السكر باربعة دراهم ، ورطل الجلاب بثمانية دراهم ، ورطل السمن بأربعة دراهم ، ورطل السيرج بدرهمين ، وثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين ، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار ذهب (يساوي ديناران ونصف في الذهب المغربي) ، وإشترت بنحو هذه القيمة جارية لها جمال بارع ، وإشترى أصحابي غلام صغير السن حسن اسمه لؤلؤ بدينار ذهب.^(٣٦)

ومن بنجاله إلى مل جاوه (سومطرة) وفي منتصف الطريق إليها توقفت السفن في بلاد (البرهتكار) (وقد حيرت هذه التسمية العلماء والباحثين هل هي اسم منطقة أم إسما لشعب) ويفهم بأنهم يسكنون في بيوت من القصب مسقفة بحشيش الأرض تمتد على شاطئ البحر وعندهم من أشجار التبول والموز الشيء الكثير. ووصف رجالهم على مثل صورنا إلا ان أفواههم كأفواه الكلاب، وأما نساؤهم فلسن كذلك، ولهن جمال بارع ، ورجالهم عرايا لا يستترون، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر وللرجل منهم ثلاثون إمراة فما دون ذلك أو فوقه، وهم لا يزنون وإذا زنا أحدهم أقيم عليه الحد فيصلب حتى الموت^(٣٧)، ومن جاوه (جاوه الكبرى) إلى بلاد الطواليسي نسبة إلى ملكها طواليس^(٣٨)، وقد وصفها بأنها بلاد عريضة وملكها يضا هي ملك الصين وله من الجنوك (السفن الكبيرة) الكثير يقاتل بها ملك الصين حتى يصلحوه، وأهل هذه البلاد من عبدة الأوثان ، حسان الصورة، أشبه الناس بالترك ، وتغلب على ألوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية، ويقاتلن كالرجال.^(٣٩)

ومن بلاد الطواليسي إلى الصين ، وقد ترك لنا فيها مذكرات رائعة وخصوصا ما يتعلق منها بأسماء السفن الصينية وكيفية صناعتها إذ يقول: "...ومراكب أهل الصين على ثلاثة أصناف: الكبار منها تسمى الجنوك ومفردها جنك وهي على ثلاثة أحجام، الكبير والمتوسط والصغير، أما المتوسط فيسمى (بالزو) ويطلق أهل الخليج العربي إسم الداو (Dhow) والصغير يسمى (بالككم). ويحتوي المراكب الكبيرة على إثني عشر قلوعا (شراع) وفما دونه ثلاثة، وتصنع القلوع من قصب الخيزران منسوجة بالحصر، ولا تخط أبدا، ويديرونها حسب دوران الرياح وإذا رسوا تركوها واقفة في مهب الرياح.

يتألف طاقم المركب الكبير من حوالي ألف رجل، ستمائة منهم من البحارة، وأربعمائة من الرماة وأصحاب الدرق، والجرخية (وهم الذين يرمون النفط)، ويتبع كل مركب كبير ثلاثة مراكب من المراكب المتوسطة والصغيرة، ولا تصنع هذه المراكب إلا في مدينة الزيتون الصينية (كانتون الحالية).

أما كيفية إنشاؤها ، انهم يصنعون حائطين من الخشب ثم يصلون ما بينهما بخشب ضخم جدا موصلة بالطول والعرض، ومثبتة بمسامير ضخمة طول المسمار منها ثلاثة أذرع ، فإذا إلتئم الحائطان بهذا الخشب فرشوا أعلاها وأسفلها، ودفعوها في البحر، وعلى جوانب الخشب تكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على

أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا، ويجذفون وقوفا على أقدامهم، ويجعلون للمراكب أربعة أظهر (طوابق)، ويكون فيها البيوت والمصاري وغرف التجار وفي كل مصرية (الفسحة) بيت يتألف من عدة غرف وسنداس (حمامات) وعليها مفتاح يسدها صاحبها، ويحمل معه الجوارى والنساء وإذا دخل الرجل في مصريته فلا يعرف به أحد غيره من يكون حتى يتلاقيا، إذا وصلا إلى بعض البلاد، وفيها ما هو مخصص لسكن البحارة وأولادهم، وعلى ظهورها يزرعون الخضر والبقول في أحواض من الخشب".^(٤٠)

وعلى الرغم من ان ابن بطوطة قدم لنا مادة سميحة، إلا انه لم يتجنب نقل الغثيث من الأخبار، حتى إختلط الاثنان فتشوهت الحقيقة، وأعتقد إن هذا الخلط لم يكن ناتجا عن عدم إدراك وانما كانت ضرورة لجذب المتلقين من العوام الذين لا يفقهون المسائل العلمية، إلا من خلال خلطها بالإسطورة؛ وكتاب الرحلة المنسوب إليه مليء بالحكايات التي لا يقرها العقل مما يحتم على القارئ أو الباحث إستخدام عقله في التمييز بين الحكاية والحقيقة عن غيرها ومن هذه الحكايات يقول: "وجميع أهل الصين والخطا،^(٤١) إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل، تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا، ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم، وإذا صار رمادا عجنوه بالماء وييسوه وطبخوا به ثانية، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى، ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار ويضيفون اليه حجارة سوداء" ويبدو انه لديه خلط واضح بين الفحم وبين الصلصال الذي يستخدم في صناعة الفخار.^(٤٢)

وفي حكاية أخرى يتحدث عن طائر الرخ الإسطوري، فيقول ولما كان اليوم الثالث والأربعين (من رحلة العودة من الصين إلى الهند) ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه عشرين ميلا والرياح تحملنا إلى صوبه، فتعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل، وإن اضطرتنا الرياح اليه هلكنا، فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة وإبتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه (ص) ونذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي، وسكنت الرياح بعض السكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس وقد ارتفع في الهواء، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك، ورأيت البحرية يكون، ويودعون بعضهم بعضا، فقلت ماشأنكم؟ فقالوا: إن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ، وإن رأنا أهلكنا، وبيننا وبينه أقل من عشرة أميال، ثم ان الله تعالى قد من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نراه ولا عرفنا حقيقة صورته.^(٤٣)

٤- كتب الرحلات

- رحلة التاجر سليمان السيرافي

قدمت كتب الرحلات على إختلاف أنواعها عرضا رائعا لقصص السياحة البحرية في العصور الوسطى، رغم تسلل الخرافات إلى بعضها وتعد قصة رحلة

التاجر سليمان واحدة من أقدم هذه الكتب، وتتميز بسهولة اللغة وبساطة الإسلوب ودقة المعلومات، وفيها وصف ممتع للطريق الملاحي بين سيراف وكانتون والمراحل التي تقطعها السفن بالمسافة والوقت. وقد عثر المستشرق الفرنسي رينودو (Renadot) على المخطوط في إحدى المكتبات الفرنسية الخاصة فقام بتحقيقه ونشره سنة ١٨١٧م، كما قام المستشرق الهولندي فران (Ferrand) بإعادة تحقيقه ونشره سنة ١٩٢١، بعدها توالت عملية طبعه ونشره في البلدان العربية ومنها العراق الذي نشر تحت عنوان (رحلة السيرافي). يتالف المخطوط من قسمين يضم القسم الأول رحلة التاجر سليمان ويعود تاريخها إلى سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م، أما القسم الثاني فاشتمل على رحلة أبي وهب القرشي من البصرة إلى الصين ابان ثورة الزنج في البصرة في عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩هـ/٨٩٢م-٢٨٩هـ/٩٠٢م) وقد دون أبو زيد حسن السيرافي الرحلتين ووضعهما تحت عنوان سلسلة التواريخ وهو عنوان لا ينطبق على مضمون المخطوط، وأضاف إليه بعض الحكايات لتلافي النقص الحاصل فيه من جراء فقدان بعض معلوماته.

إبتدأ المخطوط بالبحر الثالث وهو بحر هر كند، ويبدو ان هذه البداية طفرة غير مقصودة من قبل كاتب الرحلة ابو زيد السيرافي، أو من قبل الناسخ، على خلاف منهجية الرحلة التي جاءت متسلسلة المعلومات بإستثناء هذه الطفرة. - وعليه سأتابع الرحلة من موقع إنطلاقها من (سيراف وحتى منتهائها بالصين، وما جاء فيها من أخبار).

جاء فيها؛ ان اكثر السفن الصينية تحمل من سيراف وان المتاع إليها يحمل من البصرة وعمان، ولكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلّة الماء في مواقع فيه، تخطف (تقلع) السفن إلى موقع يقال له مسقط، والمسافة بينه وبين سيراف نحو مائتي فرسخ، ومن مسقط إلى صحار يستعدون يتزودون بالماء والغنم، ومن بلاد عمان تخطف (تقلع) المراكب إلى كولم علي على ساحل المليبار (وهو الساحل الشرقي للهند) ومن مسقط إلى كولم ملي شهر عند إعتدال الريح، وفي كولم مسلحة لحماية الميناء والبلاد التي تحكمها، وفيها تؤدي السفن ما يفرض عليها من ضرائب، فيأخذ من السفن الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشر دنانير إلى دينار واحد، ومن أبارها يتزودون بالماء العذب^(٤٤)، ثم تقلع السفن إلى بحر هر كند وسمي بالبحر الثالث (بعد الخليج العربي، وبحر لاروي) وبينه وبين بحر لاروي جزائر كثيرة يقال انها ألف وتسعمائة جزيرة، وهي فرق ما بين هذين البحرين، وفي هذه الجزائر عنبر عظيم القدر يقذف به البحر إذا إشتد هيجانه. ومن هذه الجزائر تملكها امرأة وهي عامرة (أي الجزائر) بالناس والنارجيل... ومالهم الودع... تدخره الملكة في خزائنها والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق بها الودع ويدعونه (الكسنبج) وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب (سيلان) في بحر هر كند وهي رأس هذه الجزائر كلها ويدعونها (الديبجات) وتعني (رأس الجمجمة) وبجانب كل منها مغاص

للؤلؤ.. وفي أرضها جبل يسمى (الرهون) وعليه هبط آدم عليه السلام... وفي هذه الجزيرة ملكان، ويلي هذه الجزيرة جزائر كثيرة منها (الرمني) وفيها الذهب و(فنصور) وسكانها كفار، ولهم ذهب كثير، ومأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون وإذا أراد أحدهم أن يتزوج لم يتزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل إثنين تزوج إثنين، وكذلك إذا قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحف^(٤٥) وبين كولم وهر كند نحو شهر.

وإذا جاوزنا بحر هر كند صرنا إلى موقع يقال له لنجبالوس وهم لا يفهمون لغة العرب، وهم عراة بيض كواسج، وذكر انهم لم يروا منهم النساء، وذلك ان رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل، فإذا شرب في ساعة فهو حلو مثل العسل، وإذا ترك ساعة صار شرابا وإن بقي أياما صار خلا، فيبيعون ذلك بالحديد (مقايضة)... ثم تخطف (تقلع) المراكب إلى موقع يقال له يقال له كلاة بار (جاوه الحالية) -ولباسهم الفوط، ثم تسر المراكب إلى موقع يقال له (تيومة) والمسافة بينه وبين كلاه بار حوالي عشرة أيام، ومنها إلى موقع يقال له كورنج وفيها جبل يكثر فيه الهراب من العبيد واللصوص، ومنها إلى موقع يقال له (ضف) وعلى مسير عشر أيام من كوربخ، ومنه يأتي بالعود الصنفي، وبها ملك، وهم قوم سمر يلبس الواحد منهم فوطتين، ومنها إلى جزيرة (صند فولات) وهي جزيرة بالبحر والمسافة إليها حوالي عشرة أيام، ومنها إلى بحر صنخي، ثم إلى أبواب الصين وهي جبال في البحر بين كل جبلين مزجة تمر فيها المراكب فإذا سلم الله في (صند فولات) المركب إلى الصين في شهر إلا ان الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام فإذا جاوزت السفينة الخور صار إلى مدينة خانقو (كانتون الحالية).^(٤٦)

وذكروا ان في جزيرة يقال لها ملجان او ملحان فيما بين سرنديب، وكلاه بار (جاوه) قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان في غير بلادهم علقوه منكسا وقطعوه وأكلوه نيا، وعددهم كثير، وليس لهم ملك، وغذائهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبه (وحوش) بالغياض والآجام.^(٤٧)

وذكروا ان في ناحية البحر سمكا صغيرا، طيارا يطير على وجه الماء ويسمى جراد الماء، وذكروا ان حيوانا في البحر يشبه السرطان، فإذا خرج من البحر صار حجرا يتخذ منه كحل لبعض علل العين^(٤٨).

تعد رحلة التاجر سليمان من أهم السجلات العربية عن الأسفار البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن الثالث الهجري، وربما هي الرحلة الأولى التي تحدثت عن سواحل البحر الشرقي الكبير، والطرق الملاحية التي فيه على أساس الخبرة الشخصية.

ويذكر غوستاف لوبون، ان هذه الرحلة تعد أول مؤلف بحري نشر عن بلاد الصين وأحوالها الاجتماعية والسياسية والإقتصادية.^(٤٩)

واخيرا ان رحلة السيرافي لا تخلو من بعض الأعاجيب والتهويل، إلا ان أكثر ما ورد فيها حقائق واقعية تتفق والدراسات العلمية المعاصرة، فضلا عن قيمها العلمية لم تضمنته من معلومات عن حياة الشعوب الأخرى.

٢- رحلة ابن جبير

تعد رحلة أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني البننسي (٥٨٢هـ/١١٨٦م - ٦٧٨هـ/١٢٨٠م) واحدة من أشهر الرحلات في تراث الأدب الجغرافي في العصور الوسطى وقد حظيت بإهتمام كبير من قبل المستشرقين وعلى رأسهم الأنكليزي وليم رايت Willam Wright الذي قام بتحقيق الرحلة ونشرها سنة ١٨٥٢م، وأعاد نشرها المستشرق الهولندي دي خويه DeGoege سنة ١٩٠٧ في سلسلة جب العلمية وكانت تحت عنوان (Travel Of Ibn Jubyr E.W.Gibb.Men Series V.1907) ثم توالى طباعتها في القاهرة وفي دول عربية أخرى.

كان الدافع الأول للرحلة التي إستمرت سنتين وثلاثة أشهر ونصف، هو حج بيت الله الحرام، ثم تطورت إلى جولة إستقصائية شملت كل من مصر والحجاز والعراق وبلاد الشام، إنطلقت الرحلة من الأندلس إلى سبته ومنه إلى الإسكندرية مروراً بجزائر ميورقة، نورقة، وسردينيا، وصقلية، وأقريطش وبين منورقة وسردينيا. واجهت الرحلة ظروف جوية عصيبة يصفها قائلاً: "قام علينا نوء هائل، فلم نعد نميز بين الشرق والغرب، فحاذانا مركب للروم فسألناه عن مقصدها فاخبر انه من قرطاج ويريد صقلية، فاستقبلنا طريقة التي جاء فيها من غير علم فأخذنا عند ذلك في إتباع أثره، فخرج علينا طرف من بر سرداينة، فأخذنا بالرجوع عودا على بدء، فأرسلنا في سرداينه في مرسى (بقوسمركة) وفي مدة بقاءنا بالمرسى المذكور جدد الحطب والماء والزاد، وهبط واحد من المسلمين فمن يحفظ اللسان الرومي مع جملة من الروم إلى اقرب المواضع المعمورة منا فأعلمنا انه من رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين رجال ونساء ممن أسرهم الصليبيين عند السواحل الشامية يباعون في أسواق النخاسين".^(٥٠)

وبين سردينيا وصقلية واجهت الرحلة ظروف جوية أشد من سابقتها، لم ير البحارة مثلها في سالف أعمارهم على حد تعبيره، فيصفها بقوله: "غادرنا سردينيا وقبل أن نبلغ منتهاها، عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شأبيب سهام، فعظم الخطب واشتد الكرب، وجاءنا الموج في كل مكان، واشتدت الريح والمطر عسوفاً حتى لم يثبت معها شراع، فلجأ إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحداها وفرقتة، وكسرت الخشبة التي يربط الشرع فيها وهي المعروفة عندهم (بالقريه) فحينئذ تمكن اليأس في النفوس وإرتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل، وبوصولنا إلى بر صقلية إنقشعت السحب، وطاب الهواء، وأضاءت الشمس، فعاد الأئس، وذهب اليأس وحمدنا الله الذي أرانا عظيم قدرته".^(٥١)

وقبل أن ينتقل ابن جبير إلى مرفأ عيذاب المصرية على البحر الأحمر تجول في مدينتي الإسكندرية والقاهرة فوصف معلمها وأنشطتها الحضارية والإنسانية والإقتصادية والتاريخية، أما عيذاب فهي مرفأ صغير على البحر الأحمر ومع صغره كان يعج بالحركة الملاحية للسفن القادمة من الهند وعمان وعدن وقد وصفها قائلاً:

"عيذاب مدينة على ساحل بحر جدة، غير مسورة وأكثر بيوتها من الأخصاص، وفيها بناء مستحدث من الجص، وهي أحفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط بها وتقلع منها، زائدا مراكب الحجاج الصادرة والواردة".^(٥٢)

وكان بحارة عيذاب يعاملون الحجاج بشيء من الفضاضة وعدم الاحترام، فيصفهم بالقول: ولأهل عيذاب في الحجاج، الطواغيت، وذلك انهم يشحنون الجلاب.^(٥٣) ومفردها جلبة بالحجاج حتى يجلس بعضهم فوق بعض كأنها أقفاص دجاج، ويحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء، حتى يستوفي منه صاحب الجلبه ثمنها في سفره ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك: ويقولون (علينا الألواح وعلى الحجاج بالأرواح) وهذا متعارف بينهم.

وأهل عيذاب من السودان الذين يعرفون (بالبجاة) ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها، وهم أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً، لادين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم، مالا يرضى ولا يحل ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرق يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لا يستترون، وبالجملة فهم أمة لا أخلاق لهم ولا جناح على لا عنهم.^(٥٤)

وتحدث عن مغاصات اللؤلؤ في عيذاب فقال: وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ وفي جزائر على مقربة منها، وان الغوص عليه في شهر يوليو والشهر الذي يليه، ويستخرج منه جوهر نفيس... من أصداف لها أزواج وكأنها نوع من الحيتان أشبه بالسلحفاة، فإذا شقت ظهرت شفتان من داخلها كأنها محارتا فضة، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر وقد غطى عليها لحم الصدف، فيجتمع لهم من ذلك حسب الحظوظ والأرزاق.^(٥٥)

وقدم ابن جبير وصفا دقيقا للعبور من عيذاب إلى جدة والصعوبات التي واجهت المركب أثناء العبور فيقول: عند شرونا بالعبور هبت أعاصير أطاحت بالجلبه التي كان عليها الحجاج عن مجراها، ولم يتمكن ربانها الحاذق من السيطرة عليها والرسو في ميناء جدة، وإنما أرسينا بمرسى يعرف بأبجر وهو على بعض من جدة، وهو من أعجب المراسي صنعا ذلك ان خليجا في البحر يدخل في البر والبر مطبق من كلتا جانبيه، فترسى الجلاب فيه في قرارة مكنة هادئة^(٥٦) ومن البحر أقلعت الجلاب إلى جدة التي وصف مرساها، بأنه من أصعب المراسي بسبب كثرة الشعاب المرجانية والتفافها" إلا ان حذاقة النواتيه وخبرتهم العالية مكنتهم من الولوج بالسفينة والسير بها عبر المضائق وإيصالها إلى المرسى كما يفعل الفارس بالجواد الرطب العنان السلس القيادة على حد وصفه.^(٥٧)

إن رحلة جبير رغم قصر السياحة البحرية فيها تتميز بالدقة والموضوعية، ولا مكان للخرافة فيها، وإنما إتمدت معلوماتها على المشاهدة الشخصية فهو بحق كما سمي بشيخ الرحالة المتأخرين.

لم تقتصر الرحلات السياحية في البحر الشرقي الكبير (المحيط الهندي) وبحر الصين (البحر الأصفر) وبحر الخزر (قزوين) وبحر القلزم (الأحمر) والبحر المتوسط وإنما شملت أيضا بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) فقد طالعتنا كتب الأدب الجغرافي حول رحلة المغررين أو كما يسميها البعض برحلة المغربين أي الذين إتجهوا غربا، وهم ثمانية أصدقاء وشباب دفعتهم الرغبة والطموح وحب الإستطلاع إلى المغامرة بركوب المحيط وإكتشاف مجاهله، فهي أول رحلة عربية في هذا البحر. ورغم قلة تفاصيلها، فهي ثرية وممتعة وتطمح إلى المزيد من البحث والدراسة.

وبهذا الصدد يقول الإدريسي: هم ثمانية من الشباب في حي واحد من مدينة لشبونة تجمع بينهم قرابة دم (أبناء عمومة) وصدائة وطيدة ولقاءات مستمرة، وكان معظمهم يعمل في صناعة المراكب والصيد، وكانوا دائمي التطلع إلى شاطئ المحيط الممتد أمام عيونهم، وطالما تساءلوا عما بعده، فيرد عليهم بأواجه ويستفهم، حتى قرروا أن ينزلوا إليه ويركبوه ليكتشفوا اكنه ويبلغوا منتهاه، فأنشأوا مركبا حمالا أدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم نزلوا إلى المحيط مع هبوب الرياح الشرقية، وجروا فيه نحو أحد عشر يوما، حتى بلغوا بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير الدبوش (الأعشاب) والضباب، قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف لذلك ردوا قلاعهم إلى جهة الجنوب، وجروا في هذا السمتم نحو من إثني عشر يوما، حتى وصلوا إلى جزيرة كثيرة الغنم، حتى لا يأخذها عدو، وهي سارحة لاراعي لها، فأخذوا شاة وذبحوها، وأعدوها لطعامهم، ولكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها، فعادوا إلى سفينتهم، وأقلعوا إلى الجنوب، وظلوا يمخرون عباب البحر لنحو إثني عشر يوما حتى تراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث (يعتقد البعض ان هذه الجزر هي ازورا وكناري)، فلما وصلوا إلى البر أحاط بهم رجال في زوارق، أجبروهم على التسليم، فحملوهم إلى المدينة فرأوا فيها رجال شقر وشعورهم سبطة وهم زعر طوال القدود لنسائهم جمال عجيب، فأحتجزوهم في دار لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم العربية فسألهم عن حالهم ومن أين جاءوا، فأخبروه بقضيتهم، فوعدهم خيرا.... فظلوا في معقلهم إلى ان نشطت الرياح الغربية، فوضعوهم في زورق بعد أن عصبوا أعينهم وكنفوا أيديهم، وجروا بهم في البحر ثلاثة أيام حتى إنتهوا إلى بر، وألقوا بهم على ساحل أرض لا يعرفونها.. وبينما هم في ضنك وسوء الحال، طلع إليهم ناس من البربر فحلوا وثاقهم وأعلموهم ان بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين، وبعد أهوال ومخاطر وصلوا إلى بلادهم وقصوا قصتهم، فأطلق عليهم الناس إسم الفتية او الشبيبة المغررين.^(٥٨)

وقد توصل الباحث إلى أن انتشار الإسلام والإستقرار السياسي والإداري والإقتصادي في العصور الوسطى إنعكس إيجابيا على حركة السياحة البحرية مما

أدى إلى إنتعاشها، وقد دون لنا السواح في دفاتر مذكراتهم معلومات مهمة عن تلك السياحة تضمنت مشاهداتهم الإجتماعية والإقتصادية والسكانية والجغرافية والثقافية ومن هنا تأتي أهمية هذه المعلومات كونها جديدة لم يسبق لأحد أن كتب فيها، ولكن يجب التعامل معها بحذر شديد، للخلط الحاصل في بعضها بين الحقيقة العلمية وبين الخرافة والإسطورة الذي يعد من سمات الأدب الجغرافي في تلك الفترة.

الهوامش

- (١) فوزي ، حسين، السندباد القديم، (بيروت)، ١٩٧٧، ص٢٥٦.
- (٢) كراتشكوفسكي ،اغناطيوس يوليا نوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، (القاهرة)، ١٩٦٣، ص١٤٢.
- (٣) ألف ليلة وليلة، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطه العدوي، المجلد الثاني، (القاهرة، بولاق، ١٢٥٢هـ)، ص٨٠.
- (٤) المصدر نفسه، ص١٣.
- (٥) المصدر نفسه، ص١٤-١٥.
- (٦) المصدر نفسه، ص١٨-٢٤.
- (٧) المصدر نفسه، ص٢٤-٢٩.
- (٨) المصدر نفسه، ص٢٩-٣٣.
- (٩) المصدر نفسه، ص٣٣-٣٧.
- (١٠) المصدر نفسه، ص٣٤.
- (١١) فوزي، المصدر السابق، ص٣٤-٤٢.
- (١٢) المصدر نفسه، ص٤٥-٥٠.
- (١٣) المصدر نفسه، ص٥٠.
- (١٤) المصدر نفسه، ص٥٢.
- (١٥) جزيرة النيان، وهي إحدى جزر الهند الشرقية وتقع الى الشرق من سومطرة.
- (١٦) فوزي، المصدر السابق، ص٥٢.
- (١٧) وهو زكريا محمد بن محمود القزويني، ويرجع نسبه الى الصحابي الفقيه انس بن مالك، هاجرت أسرته من المدينة المنورة واستقرت في قزوين التي ولد فيها سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م. نشأ وترعرع فيها ثم غادرها في رحلة طلب العلم شأنه شأن علماء عصره. فحل في دمشق سنة ٦٣٠هـ وفيها تعرف على ابن العربي الصوفي الشهير، ومنها رحل الى بغداد التي استقر فيها حيث شغل منصب القضاء في كل من واسط والحلة في عهد الخليفة العباسي الأخير المستعصم وتوفي فيها سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣، والقزويني عالم متعدد المواهب فقد كتب وبرع في الجغرافية والفلك والنبات والتاريخ الطبيعي. وله عدة مؤلفات من أشهرها: كتاب عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات، آثار البلاد واخبار العباد، كتاب الاقاليم، كتاب البلدان، وكتاب في نظام الكون واخر في صفة الأرض. للمزيد ينظر: توفيق الطويل، العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي.
- (١٨) زكريا محمد بن محمود القزويني، عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات، (بيروت، ١٩٧٨)، ط٣، ص١٨.
- (١٩) المصدر نفسه، ص٤٥٦-٤٥٧.
- (٢٠) فوزي، المصدر السابق، ص٥٧-٥٨.
- (٢١) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي- وهو من بابل نشأ وترعرع في بغداد، ويرجع في نسبه الى الصحابي عبدالله بن مسعود، من أشهر مؤلفاته مروج الذهب وقد انتهى من تأليفه سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م ودون فيه اثنين من رحلاته التي شملت معظم المدن الإيرانية كفارس وكرمان واصطخر، ثم سافر الى بومبي في الهند، ووزار سيلان وسيمور ومدغشقر ورنجبار وعُمان ثم عاد الى بغداد، وشملت رحلته الثانية مناطق بحر الخزر وبحر قزوين ومنها الى بحيرة طبرية في فلسطين وانطاكيا ثم عاد الى بغداد ومنها سافر الى مصر - وتوفي فيها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م.
- للمزيد ينظر: عاقل ، نبيه، المسعودي، مجلة العربي، العدد٤٨، لسنة ١٩٦٢.
- (٢٢) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، ١٤٢٢هـ، ص١٢٥-١٢٦.
- (٢٣) المصدر نفسه، ص٩٣.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص١٧٨-١٧٩.
- (٢٥) المصدر نفسه، ص١٨١.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص١٨٠-١٨١.

- (٢٧) المصدر نفسه، ص ١٧٤-١٧٨.
- (٢٨) فوزي، المصدر السابق، ص ٧٢.
- (٢٩) المسعودي، المصدر السابق، ص ١٧٥-١٧٦.
- (٣٠) أبو سيد حسن السيرافي، رحلة السيرافي، (بغداد، ١٩٦١)، ص ٣٩.
- (٣١) شمس الدين أبو عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، المتوفى ٧٧٩هـ/٣٧٧م، نشأ في طنجة وينسب إلى عائلة بربرية اشتهرت بالقضاء، وقد تعلم عن والده القراءة والكتاب كبقية أفراد العائلة، فانكب على دراسة العلوم والآداب والفقه منذ صباه وقد تمتع بمعرفة جيدة عن المذهب المالكي الذي كان سائدا في شمال أفريقيا آنذاك ولا زال حتى الوقت الحاضر، ويفضل هذه المعرفة بالمذهب، فقد استغل منصب القضاء، وبرع من خلال رحلته وهو في ريعان شبابه، ويبدو من خلال كلامه انه كان تقيا ورعا وقد حج خمس مرات، ويرجع هذه النعمة التي انعمها الله عليه الى هذه التقوى والورع وفي رحلته التي استمرت أكثر من ربع قرن زار خلالها العراق والهند وسيلان وملايو والصين وزار ايضا مناطق عدة في جنوب الصحراء.
- وقد تصدى كثير من المؤرخين في البحث عن الرحلة الأصلية عثر السائح بوكهارت جون لويس (١٧٨٤-١٨١٧) على مختصر لها ظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم، وعن نسخة أخرى ترجم عنها بسمكور بجاترن (١٧٩٢-١٨٥٠) الى اللاتينية اسفار ابن بطوطة الى بلاد افريقيا وفارس والجزائر والتتر بمعاونة دي لاجرانج ونشرها عام ١٨٨١، وتعد الطبعة التي نشرها كل من سي ديفريمري (١٨٨١-١٨٨٣) وسانجيتي (١٨٥٣-١٨٥٨) من احسن الطبعات، ثم تولى طبع الرحلة في البلاد العربية، وكان اقدم طبعاتها صدرت في القاهرة عن مطبعة وادي النيل بمجلدين عام (١٢١٨هـ/١٨٧١)، وآخرها الطبعة التي حققها ووضع خرائطها الأستاذ عبد الهادي التازي في اربع مجلدات، ومجلد خامس للفهارس صدرت في الرباط عام (١٤٧١هـ/١٩٩٧م) وقد اعتمد عليها هذه الدراسة في معظم جوانبها. للمزيد ينظر: تحقيق عبد الهادي التازي، (المغرب، ١٩٧٧)، ج ١، مقدمة المحقق.
- (٣٢) رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، (الرباط، ١٩٩٧)، ج ٤، ص ٥٣-٥٤.
- (٣٣) المصدر نفسه، ص ٥٥.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ٨٢-٨٣.
- (٣٥) المصدر نفسه، ص ٨٦-٨٨.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ١٠٠-١٠١.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ١٠٧.
- (٣٨) المصدر السابق، ص ١٢٠.
- (٣٩) والجنك- كلمة جاويه وتعني السفينة الكبيرة، للمزيد ينظر: رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٤٦.
- (٤٠) المصدر نفسه، ص ٤٦.
- (٤١) اطلقت كلمة خطأ على مناطق شمال الصين، وقد استخدمت من قبل الأوروبيين من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر، وسميت بهذا الاسم نسبة الى اماره بروطو المنغولية التي حكمت شمال الصين للفترة الواقعة بين ٩٠٧-١١٢٢م والروس يسمون الصين دائما بقطاي Kitay. للمزيد ينظر: ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ١٢٩.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص ١٢٩-١٣٠.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص ١٥٧-١٥٨.
- (٤٤) رحلة السيرافي، المصدر السابق، ص ٣٤-٣٦.
- (٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٠-٣١.
- (٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٦-٣٨.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٨.
- (٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٩.
- (٤٩) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة اكرم زعيتر، (القاهرة، ١٩٥٦)، ط ٣، ص ٤٦٣.
- (٥٠) ابن جبير، ابو الحسين محمد احمد، الرحلة، القاهرة، ص ٤١-٤٢.
- (٥١) المصدر نفسه، ص ٤٢-٤٣.
- (٥٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.
- (٥٣) الجلاب، وهي نوع من المراكب يشتهر بها البحر الأحمر، يجلب خشبها من الهندة اليمن ولا يستخدم فيها اي مسمار، وانما تخاط بامراس مصنوعة من الغنبار، وهو قشور جوز النارجيل يدوسونه الى ان يختلط فيفتلون منه امراسا يخيطنون بها المراكب، ويخللون بها بدسر من عيدان النخل، فاذا فرغوا من انشاء الجبله على هذه الصفة سقوها باليمن او بدهن الخروع او بدهن القرش، وهو احسنها للإبقاء على نسبة معينة من الرطوبة به مما يجعله مرنا لا ينكسر عند اصطدامه بالشعاب المرجانية المنتشرة في البحر الأحمر، أما أشرعتها فيصنعونها من حوص شجر المقل للمزيد ينظر: رحلة ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٦٤-٦٥.
- (٥٤) المصدر نفسه، ص ٦٥.

- (٥٥) المصدر نفسه، ص ٦٧ .
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٦٧ .
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٦٧ .
(٥٨) سوسة، احمد، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، الباب الثاني، (بغداد، ١٩٧٤)، ص ٤٠٩-٤١٠ .